
قراءات إفريقية
معضلة الإصلاح السياسي
و «القدوم الثالث» لإفريقيا

لمحات عن الاستشراق الأفريقاني



محمد تفسير بالدي

باحث دكتوراه، دار الحديث الحسنية- جامعة القرويين

لقد فوجئ المستعمر الغربي- عندما حلّ في القارة الإفريقية- بتجذّر الهُويّة الإسلامية وغِنى الثقافة المحلية؛ حيث وجد أمامه المدارس العلمية التي تعجّ بالطلبة، والخزائن التي تزخر بذخائر المخطوطات ونفائس المؤلفات من إنتاج أبناء القارة، فانتدب لدراسة هذا التراث جلّةً من الباحثين؛ يبعثهم أحياناً حبّ العلم، وأحياناً أخرى القصد إلى تيسير مهمّة الاستعمار.

فحققوا البعض، ودرسوا الآخر، معتمدين في مناهجهم في الغالب نفس الآليات والمفاهيم المعهودة لدى إخوانهم ممن كانوا يعنون بالبلدان الإسلامية الأخرى، وهكذا نشأت في بداية القرن الخامس عشر مدرسةٌ استشراقية أفريقانية، لها خصائصها ومميزاتها، خلّفت تراثاً علميّاً ضخماً، له ما له وعليه ما عليه.

الاستشراق والاستفراق، أية علاقة؟

عندما يُطلق «الاستشـــراق» فإنّ أول ما يتبادر إلى ذهن الســـامع أنّ المقصود به هو ذلـك الحقل المعرفي الضخم الذي نشـــأ في الغرب لدراسة الثقافات الشرقية. وغالباً ما يعرّف المستشـــرقون بأنهم: جماعةٌ من المؤرخين والكتاب الغربيين، الذين عُنوا بدراسة المواضيع التراثية والتاريخية والدينية والاجتماعية لحضارة الشرق[1].

ولكننا نتساءل: هل يمكن اعتبار القارة الإفريقية داخلة في ذلك الحقل المعرفي الذي أخذ اهتمام المستشرقين؟ أو أنّ الأمر متعلق بالشرق الإسلامي فحسب؟

وللإجابة عن هذا التساؤل؛ يجدر بنا تحديد المقصود بـ«الشـــرق» الذي اشـــتُق منه مصطلح «الاستشـــراق»، أهو الشرق الجغرافي أم الشرق الحضاري؟

التاريخ الغربـــي يذكّرنا أنّ الأوروبيين لـــم يزالوا منذ عصر اليونان شـــغوفين بحضارات آسيا البابلية والفارسية والهنديـــة، حيث كانت تمثّـــل الآخر والنظيـــر والنّد. وقد تضاعف هذا الإعجاب مع ازدهار حضارة الإسلام، فتكرّس في الذهنية الأوروبية علـــى مَرّ العصور تقابلٌ بين حضارته وحضارة الشرق.

وفـــي هذا الصـــدد يقـــول الدكتور يحيى مـــراد: «إنّ الاستشـــراق كفكـــرة علمية قد نالَ حظّـــاً عظيماً في أثناء القرن الثامن عشـــر، حيث كان الشـــرق يأخـــذ مكانه في أبحاثه ومؤلفاته إلى جانب الغرب في أُفق شمولي، كما يؤكد رودنســـون، مما يدل- فيما نظنّ- على أنّ دراسة العرب وما يَتَعَلَّق بهم كان ولا يزال أمراً بالغ الأهمية لعلم الاستشـــراق ودراساته»[2].

وبهـــذا الاعتبار التاريخي؛ يمكـــن القول إنّ الأصل في استخدام «الشرق» إنما هو المعنى الجغرافي، وهو ما يتجلّى في الاســـتخدام الجيواستراتيجي، حيث ينقسم الشرق إلى: شرق أقصى، وشرق أوسط، وشرق أدنى.

بهـــذا الاعتبار الجغرافـــي؛ لا يمكن أن تكـــون القارة الإفريقية داخلةً في معنى الشرق، بل يخرج الغرب الإسلامي بصفة عامة. وعليه؛ لا يصحّ تســـمية الباحثين الغربيّين في المغرب والجزائر مستشرقين بالاعتبار الجغرافي.

أما إذا لاحظنا ازدهار الحضارة الإسلامية فإن الشرق يصبح مرادفاً للإسلام، بحيث يشمل: كلّ المناطق الآسيوية والإفريقية، بل حتى الأوروبية التي اتســـعت فيها الحضارة الإسلامية.

يـــرى الطيب بن إبراهيم أنّ الشـــرق الذي اهتم الغرب بدراســـته والتخصّص في ثقافته وتراثه، ليس هو الشـــرق الجغرافي الطبيعي، وإنما هو «الشرق الهُويّة»، وهو محور ما استهدفه علم الاستشراق ومصدر العناية والاهتمام، فهدف الاستشراق هو معرفة «الشرق الهُويّة والتاريخ» المتمثل في الإسلام والمسلمين[3].

ثم إنّ مفهوم الاستشـــراق، الذي ورد في الجزء الثاني عشر من موسوعة دائرة المعارف الإسلامية، يُدخل إفريقيا بصفة مطلقة- بعد أن خصّص شمال إفريقيا بالذكر- ضمن الدراسات الاستشراقية، حيث اعتبر أنّ الاستشراق تسميةٌ لفئة من مواد التعليم اللغويـــة والتاريخية التي تتعلق بلغات الشـــرق وثقافاته، وشـــمال إفريقيا، والمناطق الواقعة إلى الشـــرق والجنوب من ذلك، وهذا يعني آســـيا، حتى الشرق الأقصى بالإضافة إلى إفريقيا.

بنـــاءً عليه؛ يمكن الحديث عن «استشـــراق أفريقاني»، على أســـاس أنّ القارة الإفريقية داخلةٌ في الحقل المعرفي الذي أخذ اهتمام المستشـــرقين، وذلك بالاعتبار الحضاري الذي يجمع إفريقيا بالبلاد الإســـلامية الأخرى التي عُنيت بها الدراسات الاستشراقية.

مراحل الاستشراق الأفريقاني:

حلّ بالقارة الإفريقيـــة أنواعٌ كثيرة من الوافدين العرب والأوروبيّين من الغـــرب، ويمكن حصرهم في مراحل ثلاث، وهي:

---

(١) جاء في بعض المصادر اللغوية الحديثة: «استشرق: طلب علوم الشرق ولغاتهم... يقال لمن يُعنى بذلك من علماء الفرنجة»، و«المستشرق: هو عالمٌ متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه» ينظر: أحمد رضا، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة – بيروت،١٣٧٧-١٣٨٠ هـ، جـ٣، ص٣١١، و: Grande Larousse Encyclopйdique 1004 ,1003/v11

(٢) يحيى مراد، افتراءات المستشرقين على الإسلام والرد عليها، ص١١.

(٣) الطيب بن إبراهيم: الاستشراق الفرنسي وتعدد مهامه خاصة في الجزائر، دار المنابع للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٤م.

١) مرحلة الرحالة:

وهي مرحلة التجار والدعاة والعلماء الذين كانوا يجوبون هذه الأقطار، ثم يضعون مؤلفات يصفون فيها أهمّ ما وجدوا في المنطقة، وذلك بشكلٍ عرضي؛ لأنّ التأليف إذ ذاك لم يكن الغرض الأساس، وإنما وفدوا إليها لأغراض شخصية (تجارة، دعوة، سياحة، تعبّد...)، وهي مرحلة الرحالة العرب إلى إفريقيا، أمثال البكري (١٠٩٤م)[١]، والإدريسي (١١٥٤م)[٢]، وابن حوقل[٣]، والعمري (١٣٤٩م)[٤]، وابن بطوطة (١٣٦٩م)[٥]، والحسن بن محمد الوزان حوالي (١٤٩٤-١٥٥٢م)[٦]، ومن العلماء القدامى ابن خلدون (١٤٠٦م)، وغيرهم كثير.

٢) مرحلة المستكشفين:

وهي مرحلة البعثات الفردية والجماعية، التي كانت ترسلها القوات الأوروبية للبحث في المنطقة والتنقيب فيها تمهيداً للمشروع الاستعماري[٧]، وامتدت هذه المرحلة ما بين القرنَيْن الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين، وكان من أشهرهم «هنريش بارت»، و«رينيه كابيه»[٨] René Caillé، و«منغو بارك»[٩] Moungo Park، كلهم قاموا

(١) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، مؤرخ جغرافي، علامة بالأدب... رجع إلى قرطبة بعد غزوة المرابطين، فتوفي بها عن سنّ عالية. له كتب جليلة، منها: (المغرب في ذكر إفريقية والمغرب)، و(معجم ما استعجم)- ط» أربعة أجزاء، و(أعلام النبوة)... ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، الخامسة عشر- أيار/ مايو ٢٠٠٢م، (٤/٩٨)، بتصرف.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي (الملقب بالشريف)، رحالة وجغرافي كبير، زار بلداناً كثيرة وخلّف وصفاً جيداً لمعالمها، طاف بآسيا الصّغرى، ومصر ووصل مراكش والأندلس، وزار فرنسا وإنجلترا، ثمّ عاد إلى صقلية حيث رُحّب به بحفاوة وأغدقت عليه العطايا والهبات من ملكها روجر المعروف في الكتب العربية باسم (رجار)، وقد صنع له الإدريسي كرة أرضية كتب عليها بحروف عربية كلّ ما يعرفه عن البلدان المختلفة، ولكن هذه الكرة فقدت، ودوّن مشاهداته في كتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). ينظر: خير الدين الزركلي/ المرجع السابق.

(٣) هو ابن حَوْقَل أبو القاسم محمد بن علي الموصلي، ولد بالموصل وتوفي في القرن الرابع الهجري، ولا يُعرف التاريخ الصحيح لميلاده.. بدأ تجواله من بغداد سنة ٣٣١هـ -٩٤٣م. كان شغوفاً بمعرفة أخبار البلدان والوقوف على حال الأمصار، كثير الاستعلام والاستخبار محبّاً لقراءة الكتب المؤلفة، وقد ألّف كتابٍ (صورة الأرض) الذي تناول فيه أقاليم بلاد الإسلام إقليماً إقليماً وصقعاً صقعاً، ويبدو أنه حصر اهتمامه في دار الإسلام. ينظر: الموسوعة العربية العالمية.

(٤) هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي (١٣٠١-١٣٤٨م) من مواليد دمشق، وضع مؤلفَيْن مهمَّيْن: (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، يعد مصدراً مهماً للتاريخ والجغرافية التاريخية، والثاني (التعريف بالمصطلح الشريف). خير الدين الزركلي، الأعلام، ج١، ص٢٦٨.

(٥) هو: محمد بن عبد الله اللواتي المشهور بابن بطوطة، رحالة مغربي ولد في طنجة ١٣٠٤م وتوفي ١٣٧٨م، قضى ٢٨ سنة فى السفر والرحلات. رحلته الأولى كانت للحج عن طريق شمال إفريقيا ومصر... ورحل إلى السودان الغربي (إفريقيا الغربية) سنة ١٣٥٢م قبل عودته إلى فاس سنة ١٣٥٤م، حيث وضع فيه كتابه المشهور بـ(تحفة النظار وغرائب الأمصار) على كاتب البلاط المريني. (ينظر ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور (٦ مجلدات)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢م).

(٦) هو الحسن بن محمد الزياتي الوزان المعروف بليون الإفريقي، حوالي (١٤٩٤-١٥٥٢م)، ولد بغرناطة، يرد اسمه في المصنفات الأوروبية (Johannes Leo Elibritanus) أو(Africanus) أي (يوحنا الأسد الإفريقي)، قام من مراكش بصحبة عمّه في رحلة دبلوماسية ساقته إلى تنبكتو، حيث تعرف على إفريقية الداخلية والشمالية، وفي عام ١٥٢٦م أتم الترجمة الإيطالية لكتابه (وصف إفريقيا)، الذي وضعه أصلاً بالعربية.

(٧) قاموا بزيارات متعددة تحت عناوين مختلفة، تارة أنهم باحثو مصب الأنهار الإفريقية، أو ملتقيات الأنهار الكبرى، وتارة أنهم تجار أو مساعدون إنسانيون، تمهيداً للسيطرة الأجنبية التي شهدتها القارة، وهناك عنصر ثانٍ يتمثّل في مؤسسي الجمعيات والمنظمات الإنسانية، التي كانت توفد أعضاءها لكتابة التقارير المفصلة عن أوضاع القارة، ثم كان هناك الضباط العسكريون الذين هُم على رأس هندسة وتخطيط تقسيم إفريقيا، وقد تعامل أولئك مع فئة أخرى تُعدّ العنصر الرابع لرواد النشاط الاستشراقي في غربيّ إفريقيا، وهي البعثات التنصيرية، وهناك فئة خامسة لأولئك الرواد، تمثّلت في العناصر التعليمية التي تبدو في ظاهرها أنّها لا تنتسب إلى جمعية تنصيرية ولا دائرة حكومية.

(٨) رينه كابيه: ولد في موزيه حوالي ١٧٩٩م، نشأ يتيما، وبدأ الخوض في المجال الاستكشافي وهو دون السادسة عشرة من عمره، ففي عام ١٨٢٤م اتجه إلى بلاد موريتانيا وتعلم اللغة العربية، وكانت أقصى أمنياته الوصول إلى تمبوكتو..، ولما يئس من وجود مساعدة من الحاكم الفرنسي في السنغال، دبّر حيلة تمكن بها من الالتحاق بقوافل التجار ومرّ بمرتفعات (فوتا جالو) و(جني) حتى دخل تنبكتو١٨٢٨م، ثم عاد إلى فرنسا عن طريق مراكش مرهقاً فكافأته الجمعية الجغرافية ونشرت له أعماله، ومات ١٨٣٨م. ينظر: Simon-Pierre Ekanza /Le Dernier Siecle de l'Aafrique libre, l'Europe au chevet de l'Afrique. p.32. Presses Universitaire de Cote d'Ivoire (P.U.C.I) , 1995.

(٩) من مواليد عام ١٧٧١م، وكان الطفل السابع لفلاح

بالتوغـــل إلى إفريقيا للتعرف على أنماط حياة أهلها، وعلى تقاليدهم... فما إن جاء المســـتعمر حتـــى وجد المعارف الضرورية قد توفرت لغزوه.

وتُعـــدّ البرتغـــال أول من اتصل بإفريقيـــا بعد العرب، حيث وصلت سفنها إلى الساحل الغربي لإفريقيا في الفترة (١٤٣٠- إلـــى ١٥٠٠م)، وأبحروا في الناحية الجنوبية، حتى (الكاب) في جنـــوب إفريقيا، ومنه إلـــى المحيط الهندي، وواجهوا صعوبات في ســـبيل ذلك، وفي سنة ١٤٣٤م تمكنوا من الوصول إلى كيب بوغاردو Cape Bojardo مقابل جزر كناري، وبعد ذلك باثنتي عشرة ســـنة تمكنوا بقيادة الملاح هنري مـــن الوصول إلى ســـيراليون ١٤٦١م، ثم إلى جزيرة فرنادبو ســـنة ١٤٧٢م، وأنشـــؤوا بها محطّات تجارية تُعتبر النقـــاط الأولى للاتصال بين الأوروبيّيـــن وإفريقيا الغربية، وهـــي التي كانت لها الدور الريادي في التجارة المشـــؤومة (الرّقيق) والمعادن[١].

ونافســـهم الإنجليـــز في الإقليـــم الغربـــي للقارة في الخمســـينيات من القرن السادس عشر، وتُعتبر سنة ١٦٦٩م فترة بداية اتصال المســـتعمر الفرنســـي بإفريقيا الغربية، وذلـــك عندمـــا اتخذوا مدينـــة (دار) قاعدة لهـــم، وغيروا تســـميتها بعد ذلك باسم سان لويس Saint Luis، وغوريه، ودكار (العاصمة الســـنغالية حاليّاً)، وروفسك، وسرعان ما اعتبرت هذه المدن الأربعة جزءاً من فرنســـا نفســـها فيما وراء البحار، وهكذا واصلت فرنسا في توسعة إمبراطوريتها شـــرقاً مروراً بمالي وبوركينافاســـو إلى النيجر، وجنوباً من غينيا إلى ساحل العاج (كوت ديفوار)، وتوجو حتى بنين[٢].

ثم جاء الهولنديون ابتداءً من أواخر القرن السادس عشر الميلادي، فتمكنوا من إخراج الفرنسيّين من غوريه، ووصلوا إلى رأس بنين وشـــاطئ الذهب (غانا)، وفي سنة ١٦١١م بنوا ميناء موريه في غانا ونمّوا تجارتهم مع منطقة أكرا[٣].

وهكذا؛ فمنذ اسكتشـــاف البرتغال للقـــارة الإفريقية، نتيجـــةً لظروف اقتصاديـــة واســـتعمارية، ازداد اهتمامهم بالقارة، وأصبحـــوا يرتبون للمكث فيها، ورغبةً في الاحتكار قاموا بإنشاء قواعد عسكرية لهم في مناطق مختلفة، تمثّلت في غينيا و(بيافرا) في نيجيريا والكنغو وأنجولا وموزنبيق[٤].

٣) مرحلة المستشرقين:

وهي مرحلة بعض الإداريين المهتمين بالعلم والمعرفة، أبرزهم فيدربFaidherb[٥] الذي كان حاكماً في السنغال إذ ذاك، فقد اهتمّ بهذا النوع من الغزو الثقافي في المنطقة، ووجّه العاملين معه إلى دراســـة شـــعوب منطقة سنيغامبيا، فوضع بعـــض القواميس لبعض لغات الشـــعوب الإفريقية، وجمـــع تاريخ الولـــوف، فألف كتابـــاً ضخماً ســـماه: La Colonie du Sénégal «مستعمرة السنغال».

إلا أنّ الملاحظ في هذه الفترة المتوسطة أنّ المدرسة الفيدربيـــة لم يكن لهـــا اهتمامٌ بالمعارف الإســـلامية في غرب إفريقيا، فلم يلفت انتبـــاه أربابها لا المخطوطات ولا المؤلفـــات ولا المكتوبة من طرف أبنـــاء المنطقة، فاكتفى بدراسة الثقافة الإسلامية الشعبية السائدة فحسب.

وأما البداية الفعلية للدراســـات الاستشـــراقية في القارة الإفريقية؛ فكانت بعـــد الاتصال الأوروبي بالجهات الســـاحلية من إفريقيا الاســـتوائية في القرن الخامس عشـــر، حيث انصبّ اهتمامهم على أربع جهات من إفريقيا الاســـتوائية: الســـواحل الغينيـــة في غرب إفريقيا، وجهة الزائير (الكونغو الديمقراطية)،

أسكتلندي، وقد أكمل دراسته الجامعية في جامعة (أدنبره– The University of Edinbergh). ينظر: جوزفين كام، المستكشفون في إفريقيا، ترجمة وتقديم وتعليق: السيد يوسف نصر، مراجعة الترجمة إلى العربية: محمد علي وقاد، دار المعارف – القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٨٥ وما بعدها.

(١) أبوعيانة، جغرافية إفريقية، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية (د.ت) ص٢٥.

(٢) هنري ويسلنغ، تقسيم إفريقيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعـلان، مصراتة، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، ١٤٣١هـ/٢٠٠١م، ص٢٩٢.

(٣) المصدر السابق، ص٣٣.

(٤) محمد رياض وكوثر عبد الرسـول، إفريقيـا- دراسـة لمقومات القارة، دار النهضة العربية- بيروت، ط٢، ١٩٧٨م، ص١٠٢، وأحمد علي إسماعيل وآمـال إسماعيل شاور، إفريقيا المعاصرة البيئة والإنسان والتّحدي، دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة- ٢٠٠١م، ص٤١.

(٥) يدعى «لويس ليون سيزار فيدرب» Louis Lйon Cйsar Faidherbe، ولد في فرنسا ١٨١٨م، وتوفي ١٨٨٩م في باريس، عمل ضابطاً للمستعمر الفرنسي لمنطقة سينغامبيا. ينظر: ألـين كورسـي Alain Coursier Faidherbe du Senegal a l›Arme du Nord.Edt. 1889-1818 Tallandier–١٩٨٩.

ووادي الزمبيزي والمرتفعات المجاورة له، وإثيوبيا. ولما كان الساحل الغيني أول ما اتصل به الأوروبيون في إفريقيا الاستوائية، أُلِّفت في شأنه عدة كتب منذ عام ١٤٦٠م تقريباً حتى بداية القرن الثامن عشر، فنالت إفريقيا الاستوائية من المؤرخين ما يلزم تقديرهم، فوُجدت محاولات جماعية: كالتاريخ العالمي بإنجلترا بين ١٧٣٦م و١٧٥٣م، وخصّص فيها جزءاً لإفريقيا، وإلى جانب ذلك ظهرت جهود أحادية الموضوع (لمحة عن تاريخ غينيا) بقلم بنزيت ١٧٧٢م و (تاريخ الداهماي: مذكرات ملك بسا) بقلم بيرس، وقد نشرت هذه الكتب في ذلك العصر(١).

وأما مرحلة الاستشراق الأفريقاني في منطقة السودان الغربي، فقد ابتدأت مع دخول جيش المستعمر كبريات مدنه كـ سيقو، ونيورو، وتنبكتو، وجني، وغيرها.

وهكذا بدأ المستعمر يدرك أنّ الإسلام فاعلٌ أساسي في المنطقة لا يمكن الاستهانة به، لأنّ ما من ثورة قامت ضدهم إلا وكانت ترتدي ثوب الإسلام، وهنا بادر إلى النظر في دور هذا الإسلام- الذي كان يظنّ أنه وافدٌ دخيلٌ لا يؤثّر في المنطقة إلا سطحيًّا. من هنا بدأ الاستشراق الأفريقاني بالمعنى الدقيق.

من إنجازات المستشرقين الأفريقانيين:

إنّ من أهمّ ما أنجزه المستشرق الأفريقاني، في دراسة الشعوب الإفريقية، هو ترجمة وتحقيق ثم نشر كتب تواريخ إفريقيا التي أُلّفت باللغة العربية، والتي تقدّم معلومات دقيقة حول المنطقة، ومن هنا نجد «أوكتاف هوداس»(٢) يترجم كتاب (تاريخ السودان) للسعدي(٣)، ثم ترجم مع صهره «موريس دولافوس»(٤) كتاب (تاريخ الفتاش)(٥)، وبعد ذلك ترجم كتاب (تذكرة النسيان)؛ وهي كلّها كتب في التاريخ، مما يؤكد أنّ المستشرق الأفريقاني بدأ بالتعرف على الثقافة الإسلامية الإفريقية بالخوض في تاريخها قبل أيّ شيء.

ونجد ترجمةً أخرى قام بها دولافوس لتواريخ محلية، وخاصّةً عن شعوب الماندينغ التي كان يميل إليها أكثر في دراساته، وترجمته لتاريخ «فوتا تور» بشراكة مع هوداس(٦).

ولم يكتفوا بترجمة النصوص العربية في المنطقة فحسب؛ بل كانوا السبب في نشأة حركة علمية في التأليف، حيث تقدّموا إلى بعض الشخصيات العلمية بطلب تأليف كتب عن المنطقة: تاريخها وعاداتها وتقاليدها وغير ذلك من أوجه ثقافتها، تلك المؤلفات ستكون بعد ذلك من أهمّ ما وجّه أبناء المنطقة في تلك الفترة، من أهمّها: كتاب (زهور البساتين في تاريخ السوادين)(٧)، من تأليف العالم الصوفي المؤرخ موسى كماره (١٩٤٥م)، ويعدّ من أهمّ مؤلفات الشيخ في التاريخ، ومن أهمّ كتب التاريخ الحديث عن السودان الغربي. ولقد فشل المستشرق الفرنسي موريس دولافوس في ترجمته لضخامته ولصعوبة لغته، يقول عن الكتاب- لمّا أرسله إليه الشيخ موسى ليترجمه إلى اللّغة الفرنسية-: «تعجبّت من المهارة التي أظهرتموها في تأليف هذا الكتاب، فهو كتابٌ مهمٌّ ومفيدٌ جدّاً، وما كُتب مثله في أهل التكرور، وأنا لا زلت أجتهد في ترجمته إلى الفرنسية، وفي استعداد طباعته بالعربية والفرنسية»(٨).

ومن أهمّ الإنجازات التي قام بها الأفريقانيون، تُذكر أعمال بول مارتي(٩) Paul Marty ١٩٣٨م، الذي صنّف عن الإسلام والمسلمين في غرب إفريقيا مجموعة من الكتب،

---

(١) تاريخ إفريقيا العام، ج١، ص٤٦.

(٢) عمل أستاذاً في الجزائر، ثم أستاذاً في مدرسة اللغات الشرقية بباريس. ينظر: JEAN-LOUIS TRIAUD /L'islam au sud du Sahara, une saison orientaliste en Afrique occidentale, Edition de L'E.H.E.S.S/ cahier d'ĕtudes Africaines. L (2-3-4), 198-199-2010, 200, 915.

(٣) هو الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السعدي، وكتابه يؤرخ لدولة سنغاي الإسلامي، طبع بمطبعة بردين بمدينة انجي سنة ١٨٩٨م.

(٤) وهو صهر لأوكتاف، عمل هو الآخر في الجزائر، فهو المؤسس الأول للدراسات الإفريقية بفرنسا، تخصص في اللسانيات والأنثروبولوجيا والتاريخ. JEAN-LOUIS TRIAUD/ مرجع سابق، ص٩١٤.

(٥) للمؤرخ المشهور الشيخ محمود بن كعت الكرمني، وهو كتاب يؤرخ لدولة سنغاي والدول التي قبلها مثل دولة مالي.

(٦) المرجع السابق، ص١٤.

(٧) من علماء حوض السنغال المساهمين في الثقافة العربية الإسلامية، ألف الشيخ موسى كماره في معظم العلوم والفنون المتعارف عليها في الغرب الإفريقي، ومن أشهر مؤلفاته: (زهور البساتين في تاريخ السوادين)، وكتاب (أشهى العلوم وأطيب الخبر في سيرة الحاج عمر)، وهو مطبوع في المغرب عام ٢٠٠١م بتحقيق خديم محمد امباكي وأحمد شكري.

(٨) انظر: د. عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (١/١٦٩).

(٩) عمل ضابطاً للإدارة الاستعمارية بمنطقة غرب إفريقيا، فهو مترجم يجيد اللغة العربية، تخصص في الشؤون الدينية بغرب إفريقيا.

لمساعدة الإدارة الفرنسية على فَهْم العقلية الإفريقية[١].

ويدخل في عداد ذلك: أعمال فانسان مونتاي[٢] Vincent Monteil صاحب كتاب (الإسلام الأسود) L'islam noir، والذي يعرض لحركة الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء ومنطقة غرب إفريقيا.

وتلك المؤلفات تمثّل لحدّ الآن معدناً من المعلومات عن إفريقيا؛ على الرغم مما فيها من التحيّز والموقف السلبي من الإسلام، والبُعد الأيديولوجي الاستعماري.

ومن المعلوم أنه ضعف الاهتمام بالثقافة الإسلامية التي كانت سائدة أيام دولافوس وكادن، وغيرهما من رُوَّاد الاستشراق الأفريقاني، ولكن عاد الاهتمام بهذا التراث بشكل آخر، حيث وُضعت فهارس للمخطوطات الكبرى، ونذكر منها كتاب جون أُو هونويك بعنوان (الأدب العربي الإفريقي) Arabic Literature of Africa، يمثّل موسوعة كبيرة عرّفت بهذا التراث العربي الإفريقي، من مؤلفاتهم وأسماء كتبهم، في حوالي سبعة أجزاء.

وهناك مشروعاتٌ أخرى تعكف على جمع هذا التراث، نذكر منها مشروع الجمعية الكلاسيكية الإفريقية L'association classiques africaines، التي أُنشئت عام ١٩٦٧م، بهدف جمع التراث الأدبي الإفريقي ليكون مرجعاً للباحثين حول الحضارة الإفريقية[٣].

ونذكر كذلك أعمال المرحوم «ألفاً إبراهيم صو» الذي عمل أستاذاً في معهد اللغات الشرقية بفرنسا، حقّق هو الآخر جزءاً كبيراً من تراث الفلان، أبرزه تحقيق المنظومة الفقهية المشهورة باسم «أوغرد ملل»)معدن السّعادة(، لصاحبه «جرن صمب مومبيا» رحمه الله.

ولا يفوتنا ذكر (موسوعة المخطوطات العربية في موريتانيا)[٤]، وتحقيق كتاب (بيان ما وقع) لمؤلفه الحاج عمر الفوتي، حقّقه جان لويس تريو.

خاتمة:

هكذا نرى أنّ الاستشراق كمنهج غربي لدراسة المجتمعات الشرقية شمل الغرب الإفريقي، فاعتنى بدراسة التراث العربي الإسلامي والثقافات المحلية السائدة فيها، وكان للاستشراق فضلٌ - إلى حدٍّ ما - للتنويه به وإنقاذ البعض منه من التلف.

ولقد خلصت خاتمة البحث إلى مجموعة من النتائج، نذكرها كما يأتي:

- أنّ الدراسات الاستشراقية شملت القارة الإفريقية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ عن العالم الإسلامي.
- أبانت مراحل البحث: أنّ البداية الفعلية للاستشراق الأفريقاني كانت بعد الاتصال الأوروبي بالجهات الساحلية من إفريقيا الاستوائية في القرن الخامس عشر.
- كما أبانت: أنّ البرتغاليّين هُم أول مَن اتصل بالقارة الإفريقية منذ عام ١٤٣٠م، ونافسهم الإنجليز والهولنديون.
- واكتشفت الورقة أنّ من أهمّ ما أنجزه المستشرق الأفريقاني هو ترجمة وتحقيق ثم نشر كتب تواريخ إفريقيا التي أُلّفت باللغة العربية، قبل الخوض في الكتابة عن الإسلام والمسلمين في إفريقيا ■

(١) من مؤلفاته:
- Йtudes sur l'Islam maure. Cheikh Sidпa. Les Fadelia. Les Ida ou Ali, 1916.
- Йtudes sur l'Islam au Sйnйgal, 1917.
- L'Islam en Guinйe: Fouta-Diallon, 1917.
- Йtudes sur l'Islam et les tribus du Soudan, 1918.
- Йtudes sur l'Islam et les tribus maures ; les Brakna, 1920.
- Йtudes sur l'Islam en Cфte d'Ivoire, 1922.
- Йtudes sur l'Islam au Dahomey: le bas Dahomey, le haut Dahomey, 1926.
- L'islam et les tribus dans la colonie du Niger, 1930.

(٢) من كبار المستشرقين الفرنسيين، ولد في ٢٧ مايو ١٩١٣م، عمل في المعهد الفرنسي لإفريقيا السوداء IFAN بدكار بالسنغال، قبل أن يعيّن مستشاراً ثقافياً في إندونيسيا (١٩٦٩م). وفي عام ١٩٧٧م اعتنق فانسان مونتاي الإسلام بمدينة نواكشوط الموريتانية، وغير اسمه من فانسان إلى منصور، وتوفي في باريس في ٢٧ فبراير ٢٠٠٥م. انظر: Malek Chebel, article «Vincent-Mansour Monteil», Le Monde, 3 mars 2005.

(٣) JEAN-LOUIS TRIAUD/ مرجع سابق، ص٢٢.

(٤) وهي عبارة عن مبادرة قامت بها مؤسسة الشيخ سيديّ للثقافة والإسلام، تمثّلت جُلّ المخطوطات المحفوظة في مكتبات موريتانيا. ينظر في هذا الرابط- تاريخ الزيارة ٢٠١٥م-: http://www.najeebawaih.net/show_panarr_p.php?panid=67